

قَصَصُ إِسْلَامِيَّةٍ لِلْأَطْفَالِ

أُمُّ السُّقَّرِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ

مَكْتَبَةُ
التَّوْبَةِ

٢ مكتبة التوبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجنياز، محمد منير

أم الشهداء.. الرياض

٢٨ ص، ١٧×٢٤ سم.. (سلسلة قصص إسلامية للأطفال)

ردمك: ١ - ٥٢ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

١ - القصص الإسلامية ٢ - قصص الأطفال ١ - العنوان

ب - السلسلة

٢٠ / ٣٨٢٣

ديوي ٨١٣، ٠٨٨

رقم الإيلاع: ٢٠ / ٣٨٢٣

ردمك: ١ - ٥٢ - ٧٠٤ - ٩٩٦٠

جميع حقوق الطبع محفوظة

طبعة جديّة منقّحة

الرياض - المملكة العربية السعودية - شارع جرير

هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص. ب. ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَا تَعْرِفُهَا عَزِيزِي الطِّفْلُ، إِنَّهَا الشَّاعِرَةُ
الْخَنْسَاءُ، ثَمَاضِرُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، سَيِّدَةُ
نِسَاءِ قَوْمِهَا بَنِي سُلَيْمٍ.

لَقَدْ عَاشَتْ فَتْرَةً مِنْ حَيَاتِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ،
وَتَخَلَّقَتْ بِأَخْلَاقِ قَوْمِهَا، تُشَارِكُهُمْ عَادَاتِهِمْ بِكُلِّ
مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الْإِسْلَامَ

وَلَا سَمِعَتْ بِهِ، كُلُّ هَمَّهَا أَنْ تَقُولَ الشَّعْرَ وَأَنْ
تَحْفَظَ قِصَصَ الْعَرَبِ وَرِوَايَاتِهِمْ، وَأَنْ تُبَاهِيَ
الشُّعْرَاءَ بِشِعْرِهَا، وَأَنْ تُشَارِكَ قَوْمَهَا فِي صِرَاعِهِمْ
مَعَ أَعْدَائِهِمْ، فَتَحُثُّهُمْ عَلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ، لَقَدْ
اشْتَعَلَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ قَوْمِهَا وَأَعْدَائِهِمْ، وَتَبَادَلُوا
شَنَّْ الْغَارَاتِ، فَكَانَتْ تُزَكِّي بِشِعْرِهَا نَارَ الْحَرْبِ
وَتَدْفَعُ قَوْمَهَا لِلثَّأْرِ وَالْقِتَالِ، وَلَمَّا قُتِلَ أَخُوهَا
صَخْرٌ فِي الْحَرْبِ بَكْتُهُ كَثِيراً، وَحَزِنَتْ عَلَيْهِ
طَوِيلًا، وَلَبِسَتْ السَّوَادَ وَثِيَابَ الصُّوفِ الْخَشِنَةِ
جَدَادًا عَلَى مَوْتِهِ، وَكَانَتْ تَجْمَعُ النِّسَاءَ وَتَقْرَأُ

عَلَيْهِنَّ شِغْرَهَا فِي رِثَائِهِ، فَيَبْكِينَ وَتَبْكِي مَعَهُنَّ،
وَيُمَزَّقْنَ ثِيَابَهُنَّ، وَيَنْتَزِعْنَ شُعُورَهُنَّ، دَلِيلًا عَلَى
عُمُقِ الْحُزْنِ وَالْأَسَى، وَتَفْعُلُ هِيَ مِثْلَهُنَّ، وَكَانَتْ
تَخْرُجُ إِلَى الْبَرَارِي وَالْجِبَالِ، فَتَذْكُرُهُ وَتَبْكِيهِ
وَتَتَغَنَّى بِمَجْدِهِ وَعِزِّهِ، وَتَذْكُرُ شَبَابَهُ وَقُوَّتَهُ،
وَتَصِفُهُ بِمُخْتَلَفِ أَوْصَافِ الْبُطُولَةِ وَالْفِدَاءِ، حَتَّى
صَوَّرَتْهُ بَطَلًا قَوِيًّا شَدِيدًا يَقْهَرُ كُلَّ الْأَبْطَالِ،
وَيُزَلِّزُ الْجِبَالَ وَيَفْتِكُ بِالْوُحُوشِ، وَيَصْنَعُ أَقْوَى
الْمُعْجَزَاتِ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ حَالُ الشَّاعِرَةِ
الْخَنْسَاءِ أَيَّامَ الْجَاهِلِيَّةِ، انْطَبَعَتْ أَخْلَاقُهَا بِتِلْكَ

الْفِتْرَةَ فَتَأَثَّرَتْ بِهَا، وَسَارَتْ عَلَى خَطِّهَا، عَرَفَتْ
الشَّارَ وَالْحُرُوبَ وَالْقِتَالَ، وَعَرَفَتْ الْخُرَافَاتِ
الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ تَقْدِيسِ الْأَوْثَانِ وَالْأَشْخَاصِ،
وَعَرَفَتْ أَيْضاً بَعْضَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ
لَا تَخْلُو مِنْهَا تِلْكَ الْأَيَّامُ، مِثْلَ: إِكْرَامِ الضَّيْفِ،
وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَالْوَفَاءِ وَعَدَمِ الْغَدْرِ.

الإِسْلَامُ يُغَيِّرُ أَخْلَاقَ الْخَنَسَاءِ:

وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَخَلَ
النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً، فَغَيَّرَ الْإِسْلَامُ مِنْ
أَخْلَاقِ النَّاسِ، وَجَعَلَهُمْ يَنْبُذُونَ الْأَخْلَاقَ الْجَاهِلِيَّةَ

وَيَتَحَلَّلُونَ بِالأَخْلَاقِ الحَسَنَةِ الفَاضِلَةِ، فَارْتَقَتْ بِهِ

النُّفُوسُ، وَرَقَّتِ الطَّبَاعُ وَالْقُلُوبُ، وَأَضْحَى النَّاسُ

الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ لَا يُفَكِّرُونَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ

أَحْكَامِهِ وَتَعَالِيَمِهِ السَّمْحَةِ، الَّتِي تَدْعُو إِلَى الأُخُوَّةِ

وَالِى العَمَلِ لِصَالِحِ الإِسْلَامِ، وَلِمَنْفَعَةِ المُسْلِمِينَ

جَمِيعاً، فَالْفَرْدُ المُسْلِمُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ

فَقَطْ، وَإِنَّمَا يُفَكِّرُ لِأَجْلِ المُسْلِمِينَ وَعُلُوِّهِمْ

وَرَفْعَتِهِمْ، وَهَكَذَا تَغَيَّرَتْ حَالُ الخَنَسَاءِ بَعْدَ أَنْ

دَخَلَتْ فِي الإِسْلَامِ، فَأَصْبَحَتْ تَعْمَلُ لِأَجْلِ

المُسْلِمِينَ، وَتَغَيَّرَتْ نَظَرُهَا لِلْكَوْنِ وَالحَيَاةِ، فَبَعْدَ

أَنْ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَوْتَ هُوَ نِهَآيَةُ الْإِنْسَانِ -

وَهَذَا مُعْتَقَدُ بَعْضِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ - أَضْبَحَتْ

تَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَبْعُ النَّاسِ

جَمِيعاً فِي يَوْمِ الْحِسَابِ، وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى

أَعْمَالِهِمْ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فِدَارُ أَهْلِ الْخَيْرِ دَارُهُمْ،

وَمُقَامُهُمْ فِي جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَإِنْ كَانَ شَرًّا، فِدَارُ أَهْلِ

الشَّرِّ دَارُهُمْ، وَمُقَامُهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

أَبَدًا، لِذَلِكَ لَمْ تَعُدْ تَبْكِي الْأَمْوَاتَ كَمَا فَعَلْتَ

عَلَى أَخِيهَا، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ مَنَعَ النُّوَاحَ عَلَى

الْأَمْوَاتِ، وَمَنْعَ تَمْزِيقِ الثِّيَابِ وَتَخْمِيشِ الْوَجْهِ
حُزْنَاً عَلَى الْمَيِّتِ، بَلْ أَمْرٌ بِالصَّبْرِ وَالِدُّعَاءِ بِالْخَيْرِ
لَأَوْلَئِكَ الْأَمْوَاتِ.

لَقَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ الْخَنَسَاءِ لِلْإِسْلَامِ
فَأَمَنْتُ عَنْ صِدْقٍ وَيَقِينٍ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ
دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، مُبْلَغًا رِسَالَةَ اللَّهِ
لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لِيَهْدِيَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ
حَتَّى يَسْلُكُوهُ، وَيُحَذِّرَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الشَّرِّ لِكِي
يَجْتَنِبُوهُ، فَهَذِهِ رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ؛ طَاعَةٌ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِ.

الْخَنَسَاءُ تَعْمَلُ لِلْإِسْلَامِ:

وَلِذَكَاءِ الْخَنَسَاءِ النَّادِرِ وَفَهْمِهَا الصَّحِيحِ

لِلْإِسْلَامِ وَتَعَالِيهِ، فَقَدْ نَذَرَتْ نَفْسَهَا لِلْعَمَلِ مِنْ

أَجَلٍ دِينِهَا الْجَدِيدِ، الَّذِي وَجَدَتْ فِيهِ السَّعَادَةَ

الَّتِي تَمَلَأُ قَلْبَهَا، وَالرِّضَا الَّذِي يُثْلِجُ صَدْرَهَا،

وَهُدُوءَ النَّفْسِ وَالسَّكِينَةَ الَّتِي تُرِيحُ وُجْدَانَهَا، فَلَمْ

تَعُدَّ تَهْزُؤَهَا الْمَصَائِبُ وَالْخُطُوبُ، لِأَنَّهَا أَصْبَحَتْ

تَعْتَقِدُ - بَعْدَ إِسْلَامِهَا - بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَحْدُثُ فِي

هَذَا الْكَوْنِ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ، وَكُلُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ فِي

هَذَا الْكَوْنِ هُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ، فَلَا يُصَابُ

إِنْسَانٌ بِنَفْعٍ أَوْ ضَرَرٍ إِلَّا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، لَقَدْ قَرَأَتْ

الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، فَدَخَلْتُ مَعَانِيهِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهَا
وَعَرَفْتُ، بِمَا أُوتِيتُ مِنْ فَصَاحَةٍ وَذَكَاءٍ، أَنَّهُ
كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ هَذَا الْكَوْنِ، وَأَنَّ الْبَشَرَ مَهْمَا
اجْتَهَدُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَبَدًا،
وَسَمِعْتُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأْتُ فِيهِ
الصِّدْقَ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ، وَالِدَّعْوَةَ الْخَالِصَةَ إِلَى
عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ، لَقَدْ وَقَرَ فِي قَلْبِهَا مَعْنَى
الْإِيمَانِ، وَمَعْنَى التَّسْلِيمِ لأَمْرِ اللَّهِ، مِنْ حَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِإِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -
وَهُوَ يَوْمَ ذَاكَ طِفْلٌ صَغِيرٌ لَمْ يَتَجَاوَزْ مِنَ الْعُمُرِ

عَشْرَ سِنِينَ - عِنْدَمَا قَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «يَا

بُنَيَّ إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ،

احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،

وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ

اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضْرُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا

بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ

يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ

لَكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» لِذَلِكَ

اطْمَأْنَنْتَ لِكُلِّ حَدِيثٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ،

فَلَمْ تُبَالِ بَعْدَهَا بِالْمَوْتِ، وَتَذَكَّرْتَ مَا كَانَ مِنْهَا

يَوْمَ مَاتَ أَخُوهَا صَخْرٌ عِنْدَمَا مَرَّقَتْ ثِيَابَهَا،
وَعَاشَتْ لِأَجْلِ ذَلِكَ حَزِينَةً عِدَّةَ سِنِينَ، فَعَاهَدَتْ
رَبَّهَا بَعْدَ أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهَا لِلْإِسْلَامِ، أَنْ
تُرْسِلَ أَبْنَاءَهَا الْأَرْبَعَةَ إِلَى سَاحَةِ الْجِهَادِ، لِيُقَاتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُدَافِعُوا عَنِ الْإِسْلَامِ وَعَنْ دِيَارِ
الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ يَنْشُرُوا دِينَ الْإِسْلَامِ، وَيَقْضُوا
عَلَى الشُّرْكِ وَالضَّلَالِ، فَإِذَا أَنْ يَنْتَصِرُوا عَلَى
أَعْدَائِهِمْ، وَإِذَا أَنْ يُسْتَشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
وَنَحَثُ أَبْنَاءَهَا عَلَى اللَّحَاقِ بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ
بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي

تَوَجَّهَ إِلَى الْعِرَاقِ لِقِتَالِ الْفُرْسِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى

الْمَجُوسِيَّةِ الَّتِي عَبَدَتِ النَّارَ، وَاقْتَرَفَتْ كُلَّ

الْمُحَرَّمَاتِ، فَسَارَعَ أَبْنَاءُ الْخَنْسَاءِ وَانْضَمُّوا إِلَى

هَذَا الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الزَّاحِفِ، وَكَانَتْ مَعَهُمْ

الْخَنْسَاءُ تُرَافِقُهُمْ، وَتَحُثُّهُمْ عَلَى الصَّبْرِ فِي

الْجِهَادِ، وَعَلَى الْإِقْدَامِ وَعَدَمِ الْفِرَارِ، وَتُذَكِّرُهُمْ

بِأَجْرِ الصَّابِرِينَ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللَّهِ

تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا

وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

وَتُذَكِّرُهُمْ بِأَجْرِ الشُّهَدَاءِ فِي الْآخِرَةِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

وَتَقْرَأُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «يُخْشَرُ

الشَّهِيدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَنْزِفُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ

وَالرَّيْحُ رِيحُ مِسْكِ» وَقَالَتْ لَهُمْ أَيْضًا: «يُغْفَرُ

لِلشَّهِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ...».

وَهَكَذَا رَغَّبَتْهُمْ فِي الْإِفْدَامِ وَنِيلِ الشَّهَادَةِ،

كَمَا حَذَّرَتْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ وَعَاقِبَتِهِ الْمَهِينَةِ، وَقَرَأَتْ

عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا

لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ

﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمِيذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقُنَالٍ أَوْ

مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فَتَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ

وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾.

وَشَحَنَتِ الْخَنَسَاءُ أَبْنَاءَهَا شِخْنَاتٍ إِيْمَانِيَّةَ

قُوَّةً، جَعَلَتْهُمْ يَتَشَوَّقُونَ لِلْمَعْرَكَةِ اشْتِيَاقَ الْعِطَاشِ

لِلْمَاءِ الْبَارِدِ فِي صَيْفٍ حَارٍ، لَقَدْ أَرْضَعَتْهُمْ فِي

طُفُولَتِهِمُ الْحَلِيبَ الْحَانِي الْمَذْرَارَ، وَهِيَ الْيَوْمَ

تُرْضِعُهُمْ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّافِيَّةِ، فَإِذَا كَانَ

الْحَلِيبُ غِذَاءَ الْبَدَنِ، فَإِنَّ الْعَقِيدَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ هِيَ

غِذَاءُ الرُّوحِ وَالْفِكْرِ، وَكَانَ أَوْلَادُ الْخَنَسَاءِ مُطِيعِينَ

لِوَالِدَتِهِمْ فِي طُفُولَتِهِمْ وَفِي شَبَابِهِمْ، فَلَمْ يُخَيَّبُوا
أَمَلَهَا، وَلَبَسُوا لِبَاسَ الْحَرْبِ وَتَوَجَّهُوا لِلْجِهَادِ.

مَعْرَكَةُ الْقَادِسِيَّةِ:

وَوَهَلَ الْقَائِدُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ بِجَيْشِهِ
إِلَى الْقَادِسِيَّةِ، وَهِيَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ فِي الْعِرَاقِ،
فَرْتَّبَ جُنْدَهُ، وَاسْتَعَدَّ لِمُلَاقَاةِ جَيْشِ الْفُرْسِ،
وَدَارَتْ فِيهَا مَعْرَكَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ
وَجُنُودِ الْفُرْسِ، وَاسْتَمَرَّتِ الْمَعْرَكَةُ عِدَّةَ أَيَّامٍ،
وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَكَثُرَ عَدْدُ الْقَتْلَى وَالْجُرْحَى مِنْ
الطَّرَفَيْنِ، وَاسْتُخْدِمَ الْفُرْسُ فِي قِتَالِهِمْ عَدَدًا كَبِيرًا

مِنَ الْفِيلَةِ الَّتِي كَانَتْ تَخْتَرِقُ الصُّفُوفَ، وَتَدُوسُ
الْمُسْلِمِينَ بِأَخْفَافِهَا الثَّقِيلَةِ، وَعَلَى ظَهْرِهَا تَحْمِلُ
الْمُقَاتِلِينَ مِنَ الْفُرْسِ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ
بِالسُّهَامِ وَالرَّمَاكِ، وَكَانَتْ مَعْرَكَةٌ شَاقَّةٌ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَفِرُّوا، بَلْ صَمَدُوا
يَصُدُّونَ الْفِيلَةَ وَجَيْشَ الْفُرْسِ بِأَزْوَاجِهِمْ
وَأَجْسَامِهِمْ، وَفَكَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي حِيلٍ كَثِيرَةٍ
لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْفِيلَةِ الَّتِي لَا تُؤَثِّرُ فِيهَا السُّهَامُ
لِسَمَاكِةِ جُلُودِهَا، كَمَا أَنَّ السُّيُوفَ لَا تَصِلُ
إِلَيْهَا، فَالَّذِي يَقْتَرِبُ مِنْهَا وَيَبِيدُ السَّيْفُ تَضْرِبُهُ

بِخُرْطُومِهَا الطَّوِيلِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا، ثُمَّ

تَدُوسُهُ بِأَقْدَامِهَا حَتَّى يَمُوتَ، وَهَكَذَا فَقَدْ سَقَطَ

عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ حَاوَلُوا قَتْلَ الْفِيلَةِ

فَلَمْ يُفْلِحُوا، وَاحْتَالَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي

فَأَلْبَسُوا الْجِمَالَ الْأَثْوَابَ، وَوَضَعُوا عَلَى رُؤُوسِهَا

الْبَرَاقِعَ وَالْأَقْنَعَةَ، فَبَدَتْ مُخِيفَةً بِمَظْهَرِهَا، مُرْعِبَةً

بِجَزِيرِهَا وَقَفْزِهَا، فَخَافَتْهَا الْفِيلَةُ وَتَوَقَّفَتْ عَنِ

الْهُجُومِ، وَهُنَا اقْتَرَبَ حَامِلُو الرِّمَاحِ الطَّوِيلَةِ مِنْهَا

وَسَدَّدُوا رِمَاحَهُمْ نَحْوَ عُيُونِهَا، فَفُقِئَتْ تِلْكَ

الْعُيُونُ، وَهَاجَتْ الْفِيلَةُ وَمَاجَتْ، ثُمَّ ارْتَدَّتْ إِلَى

الْوَرَاءِ، وَهِيَ لَا تَذَرِي فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ تَسِيرُ،

فَانْطَلَقَتْ تَدُوسُ الْجَيْشَ الْفَارِسِيَّ الَّذِي كَانَ

يَسِيرُ خَلْفَهَا، فَقَتَلَتْ مِنْهُ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ

انْطَلَقَتِ الْفِيلَةُ فِي رَكْضِهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى نَهْرِ

الْفُرَاتِ، فَسَقَطَتْ فِيهِ، وَغَرِقَتْ بِمَنْ كَانَ عَلَى

ظَهْرِهَا مِنَ الْجُنُودِ الْفُرْسِ، وَرَأَى الْمُسْلِمُونَ

الْكَارِثَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِأَعْدَائِهِمْ، فَاسْتَعْلَوْا هَذَا

الْخَلَلَ الَّذِي حَصَلَ فِي صُفُوفِ أَعْدَائِهِمْ،

وَأَطْبَقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَدَارَتْ رَحَى

مَعْرَكَةٍ عَنِيفَةٍ تَوَاصَلَ فِيهَا اللَّيْلُ بِالنَّهَارِ، وَالْقِتَالُ

مُسْتَمِرٌّ، فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا صَهِيلُ الْخَيْلِ، وَأَصْوَاتُ
السَّلَاحِ، وَتَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ لِلصُّمُودِ، ثُمَّ أَسْفَرَ
النَّهَارُ، وَهَرَبَ الْفُرْسُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ يَطْلُبُونَ
النَّجَاةَ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَقَدْ قُتِلَ قَادَتُهُمْ، وَقُتِلَ
الْآلَافُ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّفَ الْقِتَالُ، وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ
بِنَصْرِ اللَّهِ، ثُمَّ أَخَذُوا يُفْتَشُونَ عَنْ قَتْلَى
الْمُسْلِمِينَ لِدَفْنِهِمْ، وَعَنِ الْجَرْحَى لِتَضْمِيدِ
جِرَاحِهِمْ، وَلَمَّا جَمَعُوا الشُّهَدَاءَ مِنْ سَاحَةِ
الْمَعْرَكَةِ، إِذَا بِهِمْ يَجِدُونَ أَبْنَاءَ الْخَنَسَاءِ الْأَرْبَعَةِ
بَيْنَ الشُّهَدَاءِ، فَهَالَهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا أُمَّهُمْ بِهَذَا

الْخَبَرَ الْمُؤْلِمَ. وَرَقَّ الْقَائِدُ لِحَالِ الْخَنَسَاءِ

وَحَشِيَ أَنْ يُصِيبَهَا مِنَ الْحُزَنِ وَالْبُكَاءِ مَا أَصَابَهَا

يَوْمَ فَقَدَتْ أَخَاهَا، لِذَلِكَ تَرَدَّدَ فِي إِبْلَاغِهَا هَذَا

النَّبَأَ، ثُمَّ أَرْسَلَ وَفْدًا إِلَى الْخَنَسَاءِ لِيُبَلِّغُوَهَا

الْخَبَرَ، وَيُعَزُّوَهَا بِوَفَاةِ أَبْنَائِهَا، وَانْطَلَقَ الْوَفْدُ

نَحْوَ الْخَنَسَاءِ، فَلَمَّا شَاهَدَتْهُمْ أَسْرَعَتْ نَحْوَهُمْ

لأنَّهَا كَانَتْ كُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ لِتَسْمَعَ أَخْبَارَ جَيْشِ

الْمُسْلِمِينَ، فَأَوْقَفَتْهُمْ، وَسَأَلَتْهُمْ عَنْ أَخْبَارِ

الْمُسْلِمِينَ، قَالُوا: أَبْنَاؤُكَ يَا خَنَسَاءُ، فَقَاطَعَتْهُمْ

قَبْلَ أَنْ يُكْمِلُوا حَدِيثَهُمْ، قَائِلَةً لَهُمْ: لَمْ أَسْأَلْكُمْ

عَنْ أَبْنَائِي بَعْدُ، وَإِنَّمَا أَسْأَلُكُمْ عَنْ أَخْبَارِ
الْمَعَارِكِ.

قَالُوا لَقَدْ انْتَصَرْنَا عَلَى الْأَعْدَاءِ نَضْرًا

مُؤْزَرًا، وَهَزَمْنَاهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ، قَالَتْ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ، هَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَتْ: وَهَلْ

قَاتَلَ أَبْنَائِي قِتَالًا مُشْرِفًا أَمْ أَنَّهُمْ جَبُّوا وَخَافُوا؟

قَالُوا: لَا أَتَيْتُهَا الْخَنْسَاءُ، إِنَّ أَبْنَاءَكَ هُمْ مِنْ

خَيْرَةِ الْمُقَاتِلِينَ، لَقَدْ صَمَدُوا بِقُوَّةٍ أَمَامَ الْأَعْدَاءِ

وَلَقَدْ كَانَ صِيَاحُهُمْ يَغْلُو بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ، وَحَثَّ

الْجُنُودَ عَلَى الْإِقْدَامِ وَعَدَمِ الْفِرَارِ، وَإِنَّا لَنَفْخِرُ

بِهِمْ وَبِأُمَّهُمْ الَّتِي أَنْجَبَتْهُمْ وَرَبَّتْهُمْ عَلَى حُبِّ اللَّهِ
وَالْتَّضَحِيَّةِ فِي سَبِيلِهِ، لَقَدْ نَالُوا جَمِيعاً شَرَفَ
الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..

عِنْدَهَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ قَوْلَتَهَا الْمَشْهُورَةَ:
«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي بِجِهَادِهِمْ وَاسْتِشْهَادِهِمْ،
وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَنِي بِهِمْ فِي فَسِيحِ
جَنَّاتِهِ، لِنَتَّعَمَ بِرِضْوَانِهِ وَرَحْمَاتِهِ»، وَلَمْ تَبْكْ، وَلَمْ
تَلْبَسِ السَّوَادَ، وَلَمْ تَشُدَّ الشَّعْرَ أَوْ تَخْمِشِ الْوَجْهَ،
لَقَدْ قَالَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَهِيَ رَاضِيَةٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ،
فَخُورَةٌ بِمَا قَدَّمَ أَوْلَادُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

هَذِهِ هِيَ الْخَنَسَاءُ، مِثْلُ حَيٍّ لِكُلِّ أُمَّ

مُسْلِمَةٍ، وَقُدُوءٌ صَالِحَةٌ لِنِسَاءِ أُمَّتِنَا، رَبَّتْ أَبْنَاءَهَا

تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً صَادِقَةً، ثُمَّ وَهَبَتْهُمْ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

لِيُقَاتِلُوا وَيَذُودُوا عَنْهَا، فَاخْتَارَهُمُ اللَّهُ إِلَى جَوَارِهِ

شُهَدَاءَ يَنْعُمُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، وَيَرْتَعُونَ

هَانِئِينَ فِي جَنَانِهِ، إِنَّهُ وَعَدُ اللَّهِ الْحَقُّ لِلْمُجَاهِدِينَ

فِي سَبِيلِهِ، وَلَوْ لَمْ يُدَافِعْ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ

عَنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، لَمَا كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ عِزٌّ

وَمَجْدٌ، وَلَضَاعَتْ دِيَارُهُمْ، وَسَيَظَرُ عَلَيْهَا

أَعْدَاؤُهُمْ.

رَحِمَ اللَّهُ الْخَنَسَاءَ وَرَحِمَ اللَّهُ أَبْنَاءَهَا

الشُّهَدَاءَ، لَقَدْ كَانُوا خَيْرَ مَثَلٍ لِلتَّضَحِّيَةِ وَالْفِدَاءِ،

وَكَانَتْ أُمَّهُم خَيْرَ مُرَبِّيةٍ لِهَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ، لِذَلِكَ

فَقَدْ اسْتَحَقَّتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَقَبَ (أُمِّ الشُّهَدَاءِ).

